

المعرفة في القرآن الكريم وأثرها في صياغة مناهج البحث لدى علماء المسلمين

الأستاذ الدكتور / أحمد محمد أحمد الجلي

أستاذ الدراسات الإسلامية - كلية الآداب والعلوم - جامعة أبوظبي

ملخص البحث

تناول الورقة البحثية مفهوم المعرفة في القرآن الكريم، فتبين مصادر تلك المعرفة المتمثلة في الوحي الإلهي المقروء (القرآن الكريم) والوحي المشاهد (الكون)، وأثر القرآن الكريم في تكوين مناهج البحث العلمي لدى علماء المسلمين.

مقدمة

القرآن الكريم كما هو معلوم بالنسبة للمسلم مصدر للحقائق والمعارف لا سيما ما يتعلق منها بالغيب من إيمان بالله تعالى والملائكة والقدر والحياة الآخرة وما فيها من وقائع وأحداث، فضلاً عن كونه مصدراً للأصول والأسس التي تنظم حياة المسلم، والقيم التي تقوم عليها حياة الناس أفراداً وجماعات. أما الكون أو عالم الشهادة كما عبر عنه القرآن الكريم فقد خلق من أجل حياة البشر وإمداد الإنسان بالمواد والوسائل والآليات التي تعينه على القيام بشؤون حياته وطرق عيشه، وطلب القرآن الكريم من الإنسان السعي في جنبات الكون لاستكشافه واستمداد العلوم والمعارف منه، وفقاً لطرق معينة وأساليب محددة بينها القرآن الكريم، وتمثل في الحواس من سمع وبصر، التي تمد الإنسان بمعارف وعلوم مشاهدة، والعقل الذي يستبطن الإنسان عن طريقه العديد من العلوم والمعارف.

وبعد تفصيل هذه الجوانب ينتقل البحث إلى بيان الأثر المباشر للقرآن الكريم في تكوين مناهج البحث

العلمي لدى علماء المسلمين، وكيف استفاد العلماء المسلمون على اختلاف تخصصاتهم ومعارفهم من القرآن الكريم في صياغة مناهجهم. فوضع علماء الحديث منهجاً محكماً لتحصيل الأخبار وشروطاً دقيقة لقبولها. وصاغ علماء أصول الفقه منهجهم في استنباط الأحكام الشرعية على هدى من آيات القرآن الكريم. وخط العلماء التجريبيون منهجهم في اكتشاف الحقائق العلمية والتحقق منها مهتدين بهدي الإشارات العلمية التي وردت في القرآن الكريم. هذا، فضلاً عن المتكلمين الذين استندوا في مشروعية بحوثهم العقلي في العقائد على آيات القرآن الكريم التي حثت على النظر والتفكر، ووجد المتصوفة مستنداً لتجاربهم الذوقية ورياضاتهم الروحانية في ثنايا آيات الكتاب العزيز. وكما نشأت معظم العلوم الإسلامية حول القرآن الكريم، فقد كان القرآن منطلقاً للمناهج التي صاغها العلماء المسلمون في مختلف مجالات العلوم التجريبية والمعارف الإنسانية.

ويؤكد البحث في خاتمته على تكامل المعرفة في التصور الإسلامي، وعدم التنافر بين أنواعها، أو القطيعة بين أجزائها، فهناك تكامل بين المعرفة الغيبية والمعرفة العلمية، وتكامل بين الوحي والكون أو الوجود، وتكامل بين النظر والعمل، ويرجع ذلك إلى وحدة المصدر ووحدة الحقيقة.

مفهوم المعرفة

تجمع المصادر اللغوية على أن المعرفة ومشتقاتها ترتبط بالعلم، فعرفة الشيء تدل على العلم به وإدراكه بحاسة من الحواس أو العقل، والعرفان يعني العلم^(١). ولكن هناك اختلافاً بين الدارسين حول تلك العلاقة بين المعرفة والعلم، فهناك من ذهب إلى أن المعرفة أعم من العلم، وهناك من ذهب إلى عكس ذلك، بينما يرى فريق ثالث بتطابقهما، فكل من المعرفة والعلم - كما يذهب من قال بترادفهما - يعني إدراك الشيء على ما هو عليه. أما من فرق بين العلم والمعرفة، فبنى ذلك على أن المعرفة مسبقة بجهل، أو إدراك مسبوق بجهل، وليس العلم كذلك. كما ذهب الجرجاني في قوله: "إنَّها (أي المعرفة) إدراك الشيء على ما هو عليه، والعلم كذلك إلا أن المعرفة مسبقة بجهل خلافاً للعلم"^(٢)، ولذلك يقال للحق ﷻ عالم، ولا يقال له عارف.

(١) انظر: لسان العرب (ابن منظور)، مجلد ١٠ ص: ١١٠-١١١، القاموس المحيط (الفيروزآبادي)، ص: ٧٧١.

(٢) التعريفات، (الجرجاني)، ص: ٢٨٣.

وأيضاً فإن المعرفة هي إدراك الجزئي، والعلم هو إدراك الكلي، وإن المعرفة تستعمل في الدلالة على التصورات، وإن العلم يستعمل في التصديقات، ولذلك نقول مثلاً: عَرَفَ اللهُ، ولا نقول: عُلِمَ اللهُ، ونقول أيضاً: العارفون بالله، ولا يقال: العالمون بالله. فالعلم يقتضي الإحاطة بالمعلوم وإدراكه على ما هو عليه، والمعرفة تقتضي الخبرة بالشيء في ظاهره، أو في أثر من آثاره، أو في جزئية من جزئياته، ولذلك وصف الله ذاته بالعلم ولم يصفها بالمعرفة (١).

هذا مع ملاحظة أن القرآن لم يستعمل لفظ المعرفة في الدلالة على العلم، وإنما استعمل الأفعال المشتقة منها مثل: عرف، ويعرف، وأطلقها على الخبرة المباشرة بالأشياء، كما في قوله تعالى: {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [النمل: ٩٣] (٢).

مصادر المعرفة في القرآن الكريم

إنَّ المصدر الأساسي للمعرفة الإنسانية في التصور القرآني هو الله تعالى الذي علم الإنسان ما لم يعلم: {الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ} عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٣) [العلق: ٤-٥]، وأيضاً: {وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا} [البقرة: ٣١]، وإنه سبحانه وهب الإنسان وسائل المعرفة من السمع والبصر والفؤاد: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [النحل: ٧٨]. ويتلقى الإنسان تلك المعارف الإلهية عن طريق الوسائل التي منحها الله له (الحواس والعقل)، فيما يتعلق بالمعارف الكونية. أما مسائل الغيب فإنَّ الله زوَّد بها الإنسان عن طريق الوحي الإلهي ويتلقاها الإنسان بعقله.

وبناءً على ذلك فإنَّ مصادر المعرفة في الإسلام هي: الوحي الإلهي المقروء والمتمثل في القرآن الكريم، والوحي الإلهي المشاهد والمتمثل في الكون.

(١) انظر: كتاب التعريفات (لجرجاني)، ص: ٢٣٨. للوقوف على تفصيل هذه الآراء انظر: نظرية المعرفة في القرآن الكريم وتضميناتها التربوية (أحمد محمد حسين الدغشي)، ص: ٧٠-٩٢.
(٢) انظر أيضاً: محمد: ٣٠، والنحل: ٨٣.

الوحي

لعل من المسلمات أن الوحي الإلهي المتمثل في القرآن والسنة، هو المصدر الأساسي للمعرفة لا سيما فيما يتعلق بعالم الغيب، الذي لا سبيل إلى إدراك حقائقه عن طريق الحس، ولا معرفة تفاصيله عن طريق العقل لأنَّ كلاً من الحس والعقل وسائل يهتدى بها إلى عالم الشهادة أو العالم المادي، ولا سبيل إلى إدراك ما وراء هذا الكون المشاهد، أو عالم الغيب عن طريقها. ومن ثم كان المصدر الوحيد لتلك الحقائق هو الوحي الإلهي الذي اهتم بتقرير قضايا العقيدة والأصول التي تبنى عليها؛ من إيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، والتي تضمنتها آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ، ومن ذلك قوله تعالى: {إِٰمَنَ الرُّسُلُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَمَلَٰئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٥٨﴾} [البقرة: ٢٨٥] (١). وحديث جبريل الذي سأل فيه النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان، وجاء فيه عن الإيمان: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللّٰهِ وَمَلَٰئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ كُلِّهِ» (٢).

كما أنَّ الوحي هو الذي يوجِّه ويقيم حركة الإنسان في الأرض، ويحدد له إطار سلوكه وأخلاقه ويضبط فكره وتصوره، ويوجب على كثير من تساؤلاته الفطرية المشروعة حول الأبعاد الغيبية، ويحدد له مكانته في الوجود والغاية منها وما توجهه في مقام العبودية، كما يعرفه بحقوقه تجاه نفسه وغيره. وقرر ذلك كله من خلال ما قرره القرآن من أحكام وتشريعات ... كما تضمن الوحي الإلهي العديد من الآيات التي أخبرت عن الظواهر الكونية كالأرض وما فيها من جبال وأشجار وأنهار وبحار، والسماء وما فيها من كواكب ونجوم ومجرات.

الكون

أما المصدر الثاني للمعرفة الإنسانية فهو الكون. وقد أشار القرآن الكريم إلى كثير من الظواهر الكونية، في

(١) انظر أيضاً: النساء: ١٣٦، البقرة: ١٧٧.

(٢) صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ج ١، ص: ٤٠.

الأرض والسماء وما بينهما، كما يجعل حركة الإنسان على هذه الأرض وتفاعله معها. وقد سعى القرآن الكريم من خلال تلك المعارف الكونية إلى أن تكون معرفة الإنسان بالكون برهاناً لإثبات العقائد الغيبية. فالعلاقة بين العالين علم الغيب وعلم الشهادة علاقة تكامل وتعاضد لا علاقة تمنع وتدافع. والمعرفة الكونية تجيب على أسئلة مهمة للإنسان، تتعلق بعالم الشهادة وواقع الإنسان المعاش، مثل كيف يعيش الإنسان على هذه الأرض، وكيف يستفيد من مواردها؟ وكيف يحافظ على مكانه فيها؟ إلخ...

وسائل المعرفة في القرآن الكريم

إنَّ المنهج المعرفي في القرآن الكريم منهج إيماني يقوم على التسليم ببدايات الوحي وأحكامه في الوجود الدنيوي والأخروي، وفي أحكامه القضائية والكونية، وهو منهج عقلي يعتد بأحكام العقل، كما أنه منهج واقعي لا يلقي الوجود الحسي من اعتباره في بناء معرفة يقينية وعلمية. فهو إذن منهج يجمع بين الوحي والعقل والحس؛ فالوحي المقروء والمشاهد يمد الإنسان بالمعرفة، بينما العقل والحواس يقوم كل منهما بدوره في إدراك المعلومات، وفي صياغة المعرفة وتفهمها.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الوسائل ودورها في كسب المعرفة وإدراك المعلومات: يتلقى الإنسان معارفه بواسطة حواسه وعقله، وعن طريق الحواس يدرك الإنسان المحسوسات ويحصل على المعرفة المتصلة بعالم الشهادة، ويستنبط بعقله ويستنتج من خلال ملاحظاته العديد من المعارف والعلوم.

العقل

يمثل دور العقل في المعرفة في أنه قد يستقل أحياناً، وبقدراته الذاتية، بإدراك بعض المعارف الضرورية أو البديهية، وهي المعرفة التي تشترك فيها جميع العقول، والتي لا تحتاج إلى التجربة الحسية؛ مثل أن الكل أكبر من جزئه، وأن الضدين لا يجتمعان. وقد يقوم العقل بطريقة عقلية صرفة بالجمع بين معرفة عقلية ومعرفة أولية أو بين معرفتين عقليتين ليصل إلى معرفة جديدة وراء العالم المشاهد، ولا يستطيع أن يتألفا بعمل العقل مع الحواس لأنها من طبيعة عالم الغيب التي ليست تجريبية.

وفيما عدا هذا النوع من المعارف العقلية المحدودة فإن العقل يحصل على معظم معارفه عن طريق تفاعل الحواس مع مصادر المعرفة الرئيسية: الكون والوحي، وإنَّ العقل والحواس يعملان في مجال الكون

إدراكاً وتأملاً واستكشافاً، ومن هنا جاء اهتمام القرآن الكريم بالعقل وأنشطته في النظر والتفكير والتدبر والاستنباط ... إلخ. ومن خلال المعرفة الكونية يصل الإنسان إلى معرفة الغيب، وهي المعرفة الإيمانية الأوسع، مع التأكيد على أن العقل مهما عرف عن الغيب فلن يستطيع أن يقدم تفاصيل في هذا المجال، ومن ثم فإن دوره في الكون لا يعدو أن يكون وسيلة لمعرفة الغيب من خلال الآثار الدالة عليه في عالم الشهادة.

وكما للعقل دور في معرفة الكون فإن له أيضاً دوراً فاعلاً في معرفة الوحي؛ ويمثل هذا الدور في: أ- تدبر نصوص الوحي للوصول إلى معرفة يقينية تثبت أن هذه النصوص من الله تعالى، وأنها هي الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ب- تدبر النصوص لفهمها واستنباط الأحكام منها ثم العمل بها.

الحواس

أما دور الحواس في المعرفة، فلها دور في معرفة الكون والوحي:

١- في ما يتعلق بمعرفة الكون فإن دور الحواس يتكامل مع دور العقل في تكوين المعرفة الكونية والتي يريد منها القرآن التوصل إلى المعرفة الغيبية.

٢- وفي ما يتعلق بمعرفة الوحي، فتشير الآيات القرآنية إلى حرص القرآن على أن تسمع آياته، وأن مجرد هذا الاستماع، قد يكون طريقاً للهداية، لذا عارضه المشركون وسعوا إلى صدّ الناس عن الاستماع إلى آيات الله، حتى لا يقعوا تحت تأثيرها.

وهاتان الوسيلتان للمعرفة - الحس والعقل - مرتبطتان، لا تستغني إحداهما عن الأخرى، إذ إن العقل مرتبط بحدود الزمان والمكان ويعمل من خلال التجارب والملاحظات التي تمده بها الحواس، والعقل حاكم على الحواس يحول إحساساتها إلى إدراكات حقيقية ومعارف يقينية، ولكنه لا يستطيع أن يحكم بشئ، في عالم المحسوسات دون أن تقدم له الحواس مادة المعرفة. وغاية ما تصل إليه الحواس، هو إدراك المحسوسات والملاحظات إدراكاً جزئياً، بينما يستطيع العقل تجريد المعاني من المحسوسات، والربط بين المعاني والتصورات.

وقد أشار القرآن الكريم في عديد من آياته إلى هاتين الوسيلتين، كما في قوله تعالى: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (٣٨) [النحل: ٧٨]، وقوله تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْفُوحًا} (٣١) [الإسراء: ٣٦]. وتشير آيات القرآن أيضاً إلى أن الله أودع في قلوب الناس البديهيات، أو المعارف الفطرية الضرورية التي يفرق بها الإنسان بين الحق والباطل والخير والشر، وما يجعل النفس مستعدة لإدراك الحقائق ومعرفة ما. كما زود الإنسان بالوسائل والأدوات اللازمة لتحصيل الكثير من المعارف والعلوم، ووهبه بذلك أصول المعرفة ووسائل كسبها وتمييزها، مثل قوله ﷺ: {اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ} (٣) {الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ} (٤) {عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} (٥) [العلق: ٣-٥]، وقوله تعالى: {فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ} (٣٩) [البقرة: ٢٣٩]، وقوله سبحانه: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رُسُلًا فَمِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ} (١٥١) [البقرة: ١٥١]، وقوله سبحانه: {إِذْ لَكُمْ مِمَّا عَلَّمْنِي رَحْمَةً} [يوسف: ٣٧]، وأيضاً قوله تعالى: {وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا} [البقرة: ٣١]، وقوله ﷺ: {وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ عَلَيْهِمُ} (٣٨) [البقرة: ٢٨٢].

وهكذا فإن الإنسان في المنظور الإسلامي لم يعثر على المعرفة من خلال بحثه فحسب كما تدعي الأساطير اليونانية، بل إن الله تعالى هو الذي وهب الإنسان بعض المعارف وأصولها، كما منحه وسائل كسب المعرفة، ليستكشف وينمي بعض معارفه.

ويكاد يكون من المسلم به أنه لم يهتم كتاب ديني بقضية التفكير كما اهتم بها القرآن الكريم، وإن اهتمام القرآن بمخاطبة ملكات التفكير والتعقل عند الإنسان بلغ درجة جعلت بعض الدارسين يعتبرون التفكير فريضة من فرائض الإسلام لا يقل شأناً عن فرائض العبادات والشعائر الدينية. فيقول العقاد مثلاً: "وليس التفكير في الإسلام عوضاً من النص أو ما يشبه النص في الأحكام، بل هو فريضة منصوص عليها، مطلوبة لذاتها، ولما يتوقف عليها من فهم الفرائض الأخرى، وكلها محظور على المسلم أن يهمله وهو قادر على

النهوض بشكاليته غير مضطر إلى تركه، فإن تركه لغير ضرورة فهو مقصر محاسب على التقصير^(١).

مظاهر اهتمام القرآن الكريم بالعقل والتفكير

تبدو تلك المكانة التي يحتلها العقل ووظائفه والتفكير وأدواته في القرآن، في عدة مظاهر من بينها:

أولاً: الدعوة الصريحة إلى التفكير والنظر وطلب المعرفة والعلم

فقد حَصَّ القرآن على النظر العقلي بنصوص كثيرة ودعا إلى التفكير وإعمال العقل في جميع مجالات الوجود الكونية والنفسية والاجتماعية، واستخدم في ذلك ألفاظاً متنوعة وعبارات شتى، كالتعقل والنظر والتبصر والتدبر والتفكر وغيرها من العبارات التي تشير إلى ملكة التفكير في الإنسان.

صحيح أنه لم يرد لفظ «العقل» في القرآن كاسم علم، ولعل في ذلك إشارة إلى أن العقل ليس له ماهية قائمة بذاته كما تصور الفلسفة اليونانية، ولكن القرآن الكريم مليء بالعبارات والصيغ التي تشير إلى العمليات العقلية التي يقوم بها الإنسان، ووردت مشتقات العقل في تسع وأربعين آية كلها بالصيغة الفعلية مثل: «عقلوه»، و«نعقل»، و«يعقلها»، التي وردت كل منها مرة واحدة، و«يعقلون»، التي وردت اثنتين وعشرين مرة، و«تعقلون»، التي وردت أربعاً وعشرين مرة^(٢). كما وردت مرادفات العقل بالصيغة الاسمية مثل: اللب وجمعه ألباب، والحلم وجمعه أحلام، والحجر، والنهن، والقلب والفؤاد، وكلها بمعنى العقل أو أداة التفكير. كما جاء التعبير في القرآن - عن العقل الذي يفكر ويستخلص من التفكير زبدة الرأي والروية - بكلمات متعددة تشترك في المعنى أحياناً، ويتفرد بعضها بمعناه، على حسب السياق، في أحيان أخرى، فهو التفكير والنظر والبصر والتدبر والاعتبار، والفقهاء^(٣).

بهذه الدعوة وهذا المنهج فتح القرآن الكريم للفكر الإنساني آفاقاً واسعة وحثه على التفكير في مجالات شتى بدءاً بالقرآن الكريم نفسه، وما أنزل فيه من تشريعات وأحكام، وما ضرب فيه من أمثال وآيات، وامتد

(١) انظر: التفكير فريضة إسلامية (العقاد)، ص: ١٤٢-١٤٤.

(٢) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة «عقل».

(٣) راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

جمال الفكر ويتسع ليشمل الكون بأسره وما فيه، الآفاق والأنفس. وهكذا يتم من خلال التفكير والتدبر فهم الوحي الإلهي المكتوب، واكتشاف أسرار كتاب الله تعالى المشهود (الكون)، وبتطابق معرفة الكلابيين يزداد الإنسان يقيناً وإيماناً كما يزداد علماً وبصيرة.

ثانياً: تحرير العقل من عوائق التفكير

فقد تعرض للعقل بعض العوائق التي تحول بينه وبين المعرفة الحقة، ومن ثمَّ عمد القرآن إلى بعض الإجراءات التي تصون العقل وتحفظه من أن يخطئ في أحكامه، ومن ذلك: أنه دعا الإنسان أن لا يقبل شيئاً على أنه حق إلا إذا قام عليه الدليل والبرهان: { وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ } [المؤمنون: ١١٧]، وكذلك: { إِنَّمَا آتَيْنَاهُمْ قُلُوبًا هَاشُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [البقرة: ١١١]، كما أمر بالبعد عن الظنون والأوهام سواء فيما يتعلق بعالم الغيب أم عالم الشهادة لأن الظنَّ واتباع الهوى يؤديان بالناس إلى الضلال وفساد أمر الدين والدنيا والآخرة ولا يغنيان عن الحق شيئاً: { يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ } [آل عمران: ١٥٤]، وأيضاً: { وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يَقِينُ مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ } [يونس: ٣٦]، { وَإِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ } [النجم: ٢٣]. كما حارب الإسلام التقليد واتباع الآباء والأسلاف على غير وعي ولا بصيرة: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَتْ آبَاءُؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ } [البقرة: ١٧٠]، { وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ } [الزمر: ٢٣-٢٤].

ثالثاً: الدعوة إلى الحوار والجدال وطلب البرهان

أخذ القرآن بمبدأ الحجاج واعتمد الحوار والجدل البناء أسلوباً أصيلاً في توجيه الخطاب إلى الناس كافة، وفي الوصول إلى الحق والاهتداء إليه، فقال تعالى: { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمُ الْبَالِغِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ صَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } [النحل: ١٢٥]. وفي الوقت نفسه ذمَّ الجدال الذي لا يستند إلى دليل موضوعي أو برهان منطقي: { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي

اللَّهُ يَغْيِرْ عِلْمَهُ وَيَتَّبِعْ كُلَّ شَيْطَانٍ مُرِيدٍ ﴿٢﴾ [الحج: ٣]، وتأكيداً لذلك نه الرسول ﷺ على الآثار السلبية الناتجة عن الجدال بالباطل فقال: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أَوْتُوا الْجِدَالَ، ثُمَّ قَرَأَ: { وَقَالُوا مَا إِلَهُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ } ﴿٥٨﴾ [الزخرف: ٥٨]» (١). وطالب القرآن أصحاب الدعاوى الباطلة أن يبرزوا ما لديهم من أدلة وبراهين يستندون إليها في دعاواهم، قال تعالى: { وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرًا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } ﴿١١١﴾ [البقرة: ١١١].

رابعاً: وضع الأسس لمنهج استدلال

بالإضافة إلى دعوته إلى النظر العقلي، وتحريره العقل من معوقات التفكير، وضع القرآن نماذج من الاستدلال ووجه العقول إلى استخدام وسائل في الاستدلال وأساليب في الجدال تمثل في جملتها منهجاً تميز به القرآن، وأصبح أساساً بنى عليه المسلمون مناهجهم في البحث وطرقهم في الاستدلال. وقد سلك القرآن في مخاطباته أساليب شتى، وتفنن في ضروب الهداية وطرق الإقناع، لاختلاف مشارب الناس وتباين مقاصدهم، وتفاوت مداركهم (٢). ومن بين تلك الأساليب والطرق التي وردت في القرآن الكريم:

١ - السبر والتقسيم: وهو باب من أبواب الجدال يتخذه المجادل سبيلاً لإبطال دعوى من يجادله، ويكون ذلك بحصر أوصاف الموضوع الذي يجادل فيه أو أقسامه، ثم يبين أنه ليس في أحد هذه الأقسام أو الأوصاف خاصية تسوغ قبول الدعوى فيه، فتبطل دعوى الخصم عن طريق هذا الحصر المنطقي للموضوع (٣). ومن أمثلة هذا المنهج من القرآن، قول الله تعالى: {ثُمَّ نَبَيَّةَ آدَمَ وَمِنْ النَّسَاءِ آتَيْنِي وَمِنْ الْمَعَازِ أُنثِينَ قُلْ أَلَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَكْثَرُ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْ يَبْلُغُوا أُمَّةً لِيُفَكِّرَ اللَّهُ فِيهِمْ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَمَنْ جَاءَهُمْ الْكِتَابُ لَيَقُولُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ قُلْ اللَّهُ يَكْفُرُ الْفَاسِقِينَ } ﴿١٠٩﴾ وَمِنْ الْإِبِلِ آتَيْنِي وَمِنْ الْبَقَرِ آتَيْنِي قُلْ أَلَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَكْثَرُ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْ يَبْلُغُوا أُمَّةً لِيُفَكِّرَ اللَّهُ فِيهِمْ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَمَنْ جَاءَهُمْ الْكِتَابُ لَيَقُولُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ قُلْ اللَّهُ يَكْفُرُ الْفَاسِقِينَ } ﴿١٠٩﴾ وَمِنْ الْإِبِلِ آتَيْنِي وَمِنْ الْبَقَرِ آتَيْنِي قُلْ أَلَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَكْثَرُ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْ يَبْلُغُوا أُمَّةً لِيُفَكِّرَ اللَّهُ فِيهِمْ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَمَنْ جَاءَهُمْ الْكِتَابُ لَيَقُولُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ قُلْ اللَّهُ يَكْفُرُ الْفَاسِقِينَ } ﴿١٠٩﴾

(١) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح، انظر: سنن الترمذي، ٥٥/٥-٥٦، ورواه ابن ماجة في سننه، ١٩/١.

(٢) انظر نماذج من تلك الأساليب في: القرآن والنظر العقلي (فاطمة إسماعيل محمد إسماعيل)، ص: ١٠٩-١٣١.

(٣) مناهج الجدال في القرآن الكريم (زاهر الألمعي)، ص: ٧٤، الإتيان في علوم القرآن (السيوطي)، ج ٤، ص: ٥٥.

عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٣﴾ [الأنعام: ١٤٣-١٤٤].
يقول السيوطي: "إن الكفار لما حرموا ذكور الأنعام تارة وإناتها تارة أخرى، ردّ تعالى ذلك عليهم بطريق السبر والتقسيم، فقال: إن الخلق لله تعالى، خلق من كل زوج مما ذكر ذكراً وأنثى، فمّ جاء تحريم ما ذكرتم؟ أي ما علته؟ لا يخلو الأمر: إما أن يكون من جهة الذكورة أو الأنوثة، أو اشتغال الرحم الشامل لهما، أو لا يدري له علة وهو التعبدى، بأن أخذ ذلك عن الله تعالى، والأخذ عن الله تعالى: إما بوجي وإرسال رسول، أو سماع كلامه ومشاهدة تلقى ذلك عنه، وهو معنى قوله: {إِنَّمَا كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْكُمْ اللَّهُ بِهَذَا}. فهذه وجوه التحريم لا تخرج عن واحد منها: الأول يلزم عليه أن يكون جميع الذكور حراماً. الثاني يلزم عليه أن تكون جميع الإناث حراماً. الثالث يلزم عليه تحريم الصنفين معاً. فبطل ما فعلوه من تحريم بعض في حالة وبعض في حالة، لأنّ العلة على ما ذكر تقتضي إطلاق التحريم، والأخذ عن الله بلا واسطة باطل. وإذا بطل جميع ذلك ثبت المدعى وهو أن ما قالوه اقتراء على الله" (١).

٢- الأقيسة الإضمارية: وهي التي تحذف فيها إحدى المقدمات مع وجود ما ينبئ عن المحذوف (٢)، وهو أسلوب شائع في القرآن. وقد ذكر الغزالي أنّ القرآن مبناه الحذف والإيجاز، أي في شكل الأقيسة، وأقرأ قوله تعالى يرد على النصارى الذين يزعمون أن عيسى ابن الله لأنه خلق من غير أب: {لَيْسَ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} ﴿٣١﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٣٢﴾ [آل عمران: ٥٩-٦٠]. وسياق الدليل: أن آدم خلق من غير أب ولا أم، وعيسى خلق من غير أب، فلو كان عيسى إلهاً بسبب ذلك، لكان آدم أولى، لكن آدم ليس ابناً ولا إلهاً باعترافاكم، فعيسى أيضاً ليس ابناً ولا إلهاً (٣).

٣- قياس الخلف: وهو إثبات المطلوب بإبطال نقيضه، وذلك لأن النقيضين لا يجتمعان ولا يخلو المحل من

(١) الإقتان في علوم القرآن (السيوطي)، ج ٤، ص: ٥٥.

(٢) مناهج الجدل (الألمبي)، ص: ٧٦.

(٣) المعجزة الكبرى (محمد أبو زهرة)، ص: ٣٩٨.

أحدهما، كالمقابلة بين العدم والوجود. وقد ورد هذا النوع من القياس في قوله تعالى: { أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ } الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ [النساء: ٨٢]، فإذا ثبت أن القرآن ليس فيه اختلاف ولا تضارب في مقرراته وعباراته، فإنه يثبت التقيض وهو أنه من عند الله تعالى (١).

٤ - قياس التمثيل: وهو إلحاق أحد الشئين بالآخر، وذلك بأن يقيس المستدل الأمر الذي يدهيه على أمر معروف عند من يخاطبه، أو على أمر بدهي لا تنكره العقول، وبين الجهة الجامعة بينهما (٢). ومن الأمثلة على ذلك قول الله تعالى: { وَصَرَّبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَيْبٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْشَأْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ } [يس: ٧٨-٨١]، في هذه الآيات عقدت المشابهة والمماثلة بين ابتداء الخلق وإعادةه.

وهكذا تتنوع أساليب الجدال القرآني وتتعدد طرق الاستدلال والبرهنة لتبيين الحق لختلف أنواع المخاطبين، وترد على المعارضين وتكشف بطلان ما اعتقدوه ووهم ما تمسكوا به من أدلة وبراهين. يقول الراغب الأصفهاني: "قد اشتمل القرآن الكريم على جميع أنواع البراهين والأدلة، وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحذير يُبنى من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكأب الله قد نطق به، لكن أوردته على عادات العرب دون دقائق طرق المتكلمين" (٣). ولعل مثل هذه النظرة إلى البراهين القرآنية، هي التي أدت بالغزالي إلى محاولة الرجوع بأصل المنطق لا إلى أرسطو، بل إلى علوم الوحي والقرآن، ومحاولة استخراج العديد من البراهين الاستنباطية، والأقيسة البرهانية، وبعض أشكال المنطق الأرسطي، من آيات القرآن الكريم (٤).

(١) المعجزة الكبرى (محمد أبو زهرة)، ص: ٤٠١.

(٢) مناهج الجدال (الألمعي)، ص: ٧٨.

(٣) مقدمة في التفسير (أبو القاسم الحسن بن محمد بن الفضل الأصفهاني)، ص ٤١-٤٣.

(٤) انظر ما كتبه الغزالي في «القسطاس المستقيم» و«معيار العلم» و«محك النظر» وغيرها من كتبه المنطقية، وأيضاً: مناهج الجدال في القرآن الكريم (زاهر الألمعي)، ص: ١١١.

حثَّ القرآن الكريم الإنسان ولقت انتباهه إلى استخدام هذا المنهج بطرقه المتعددة ومسالكه الحسية والعقلية، لاكتساب المعارف والعلوم فيما يتعلق بقضايا الوجود الكبرى: الله والكون والإنسان، والوقوف على الظواهر الكونية والاجتماعية والإنسانية، والسنن التي تحكمها وتربط بينها كسبيل إلى معرفة الله تعالى وإدراك حقائق الغيب والآخرة وما فيها من أحداث ووقائع. ومن بين تلك المجالات والظواهر التي دعا القرآن إلى التفكير والنظر فيها:

١ - الظواهر والآيات الكونية: وقد ورد في القرآن الكريم أكثر من عشرين سورة تدل أعمائها على هذه الظواهر مثل: الرعد، والنور، والدخان، والنجم، والقمر، والبروج وغيرها، كما وردت العديد من الآيات القرآنية التي تتحدث عن خلق السموات والأرض وما فيها، وتشير إلى مراحل هذا الخلق، وإلى تعدد العوالم وطبيعة الأجرام السماوية وتوازنها، وإلى الشمس والقمر ومداريهما، وإلى النجوم والكواكب وجمالها ومنافعها للإنسان. وآيات تتحدث عن خلق الله للأرض، وما أوجد فيها من حيوان ونبات ومعادن، وتهيئة إياها لحياة الإنسان. وآيات تشير إلى أهمية الماء على وجه الأرض وإلى أنه أصل الحياة عليها، وإلى أثر الجبال في استقرار توازنها، وإلى مسالك الأرض البرية والمائية وعلامات الهداية للإنسان في حله وترحاله. كما نبهت كثير من الآيات على الظواهر النباتية وأشارت إلى أثر المطر في الزرع وتماثل الثبات وتنوع الثمرات ومنافعها وجمالها. أما الظواهر الحيوانية فقد وردت سور عديدة تحمل أسماء الحيوانات مثل: الأنعام والبقرة والنحل والنمل والعنكبوت والفيل وغيرها. وأشارت الآيات القرآنية العديدة إلى أنواع الحيوانات ومنافعها وما فيها من جمال وزينة، وإلى وجود مجتمعات في عالم الحيوان مثل: مجتمعات النحل والنمل والطيور، شبيهة بالمجتمعات الإنسانية^(١).

كما دعا القرآن الكريم إلى دراسة كفايات الأشياء وما يتعلق بطبيعتها والقوانين التي تحكم العلاقة بين أجزائها، وأسباب حدوثها ومراحلها، فيقول تعالى: {أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ

(١) حول النظام المعرفي في القرآن الكريم (محمود عايد الرشدان)، ص: ٣١.

كَانَا رَتَقًا فَفَنَقْنَهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ { [الأنبياء: ٣٠] . وأكد على الاهتمام بدراسة كيات الأشياء وما فيها من علاقات تؤدي إلى معارف وعلوم أخرى. فن النظر في ظاهرة الشمس والقمر يمكن التوصل إلى علم العدد والحساب: { هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ } [يونس: ٥] .

٢- الظواهر الإنسانية والاجتماعية: اهتم القرآن الكريم بالظواهر الإنسانية والاجتماعية من جانين: من جانب أنها تشير إلى قوانين تنظم حركة الإنسان والعلاقات الاجتماعية بين الناس، ومن ناحية أخرى فإنها نماذج يهتدي بها الإنسان ويسترشد بها في تنظيم حياته كفرد وجماعة. وهناك سور عديدة تحمل أسماء أقوام وأمم أو أفراد مثل: هود، ويوسف، إبراهيم، ومريم، وسبأ، والروم، وقريش. وسور تحمل أسماء ظواهر اجتماعية أو إنسانية مثل: التوبة والأحزاب والشورى والمجادلة والمنافقون، والطلاق والهمزة والمطففين، وهناك سورة عن الإنسان، وآيات كثيرة تشير إلى خلقه بوجه عام وتطور الجنين بوجه خاص، ومراحل الخلق التي يمر بها الإنسان، وآيات أخر تشير إلى الأسرة الإنسانية وطبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة، وإلى تنوع المجتمعات واختلاف اللغات والألوان وتباين النشاطات الإنسانية (١).

٣- الأحداث والوقائع التاريخية: اهتم القرآن بالتاريخ باعتباره أحد مصادر المعرفة الإنسانية، وقدم في هذا الصدد أصول منهج متكامل في التعامل مع التاريخ البشري، ينتقل من مجرد العرض والتجميع إلى محاولة استخلاص السنن الإلهية أو القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية والتاريخية، وما في تلك الأحداث التاريخية من عبر ودروس، فيقول تعالى: { لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ } [يوسف: ١١١] . فالتاريخ في المنظور القرآني تحكمه قوانين ثابتة مطردة عبر عنها بسنن الله، ودعا الإنسان إلى اكتشافها، فيقول تعالى: { سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا } [الفتح: ٢٣] (٢). كما بين القرآن الكريم أهمية الدور الإنساني في حركة التاريخ: { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى

(١) حول النظام المعرفي في القرآن الكريم (محمود عايد الرشدان).

(٢) انظر أيضاً: آل عمران: ١٣٧.

يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد: ١١]. ووضع القرآن أساساً ومنهجاً لقبول الأخبار وردّها، كما تشير إليه الآية : {يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَهُمْ فَاسِقٌ بِنِجْيَةٍ فَسَبَّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ فَنَحْنُ عَلَيْنَا فَنَصْبِحُهُمْ عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَذِيرِينَ} [الحجرات: ٦]، مما مكّن المؤرخين المسلمين من تكوين رؤية واضحة في ذلك. واتباع هدي القرآن الكريم في التحقق من مصادر الخبر وتحصيها، وضع المسلمون أصول علم الحديث، وبدور ما يعرف بمنهج الاستقراء التاريخي كما سنرى.

وهكذا تنوع موضوعات القرآن ومحاوره فتشمل: الإنسان فرداً وجماعة، والكون وما فيه من عجائب خلق الله وآياته، والتاريخ وما فيه من دروس وعبر. وصدق الله تعالى إذ يقول: {سَرُّبِهِمْ عَائِنَتَنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [فصلت: ٥٣]. وقد وجه القرآن إلى هذا التبع والاستقراء الذي يوصل الإنسان إلى الحقيقة سواء كانت علمية أو دينية، قال تعالى: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ} ٥٨ {أَنْتُمْ تَقُولُونَ: أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ} ٥٩ {نَحْنُ قَدْ زَيَّنَّا لَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ} ٦٠ {عَلَى أَنْ يُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ} ٦١ {وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشَأَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ} ٦٢ [الواقعة: ٥٨-٦٢]، كما أرشد إلى استخدام هذا المنهج العلمي الذي يقوم على الملاحظة والاستقراء والتجريب، وينتهي بالتذكر والاعتبار ومعرفة سنن الله في الكون، والوصول عن هذا الطريق إلى القياس العقلي واستنباط الحقائق العلمية والتأكد من صحتها. وقد عبّر القرآن عن هذا المنهج بالاعتبار، وهو كما يقول ابن رشد: "ليس شيئاً أكثر من استنباط المجهول من المعلوم واستخراجه منه وهذا هو القياس" (١).

جمهور المفكرين المسلمين في مجال المنهج العلمي

بفضل ذلك المنهج القرآني الذي يستند إلى استئارة ملكة التفكير ويدفع الناس إلى إعمال عقولهم، والنظر في الكون وفي أنفسهم، حول الإسلام العرب من أمة أمّية لا تكتب ولا تحسب، كما عبّر القرآن الكريم: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ

(١) فصل المقال في ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال (ابن رشد)، ص: ٩.

لَقِيَ صَلَاحِي مُبِينٌ ﴿٢﴾ [الجمعة: ٢]، إلى أمة رائدة في مجال العلم والمعرفة.

وقد استفاد المسلمون من دراسة القرآن الكريم الذي نُمي فيهم التزعة العلمية، وغرس في نفوسهم الميل الشديد إلى البحث والنظر والملاحظة والتجربة. وفي رحاب هذه الأجواء العلمية المستمدة من القرآن الكريم، ظهرت أجيال من العلماء والمفكرين الذين وجهوا جهودهم نحو صياغة المناهج العلمية المختلفة في مجال البحث العلمي، مجسدين التصور القرآني للعلم ومناهجه، فأدّى ذلك إلى قيام نهضة علمية شملت مختلف الميادين العلمية والمعرفية، ونشأت علوم ودراسات حول القرآن وعلومه، والتفسير وقنونه، والسنة ومصطلحاتها، والفقه ومدارسه، والعقيدة وقضاياها، واللغة وآدابها، والتاريخ ومصادره، إلى غير ذلك من المعارف والعلوم. لقد فتح الوحي الإلهي للعقل المسلم أبواباً شتى من العلوم والمعارف، ليس في مجال العلوم اللغوية والشرعية فقط، بل امتد ذلك ليشمل الطب والجدل، والهيئة والهندسة والجبر والمقابلة والتجامة وغير ذلك. وسنعرض فيما يلي بعضاً من تلك المناهج التي وضعها علماء المسلمين:

منهج أصول الفقه

هو المنهج الذي استخدمه الفقهاء لاستنباط الأحكام الشرعية. وتعود بدايات هذا المنهج إلى عصر الصحابة، الذين وضعوا الضوابط التي بواسطتها تستنبط الأحكام. وينقل المؤرخون لهذا العلم أن عبد الله بن عباس ؓ كان له كلام يدل على إحاطته بالعام والخاص والناسخ والمنسوخ، وروي عنه من ذلك قوله: ((كانوا يأخذون بالأحداث فالأحدث من أمر رسول الله ﷺ)) (١)، أي الصحابة، ويعني أنهم كانوا إذا جاءهم خبر متأخر يعارض خبراً متقدماً اعتبروا الأول منسوخاً والثاني ناسخاً، وهذا باب من أبواب أصول الفقه اسمه باب النسخ (٢). وفي العصر الأول والعصر الثاني وضعت قواعد للقياس وشرائط للعلة. ويؤكد ابن خلدون ذلك فيقول عن الصحابة: "إنهم كانوا يقيسون الأشباه بالأشباه منها، وينظرون الأمثال بالأمثال، بإجماع منهم وتسليم بعضهم لبعض في ذلك، فإن كثيراً من الوقائع بعده صلوات الله وسلامه عليه

(١) الموطأ (الإمام مالك)، ط دار إحياء التراث العربي - مصر، ٣٩٤/١. وقال الحافظ في الفتح ط دار المعرفة ١٨١/٤: "وهذه الزيادة التي في آخره من قول الزهري...، وبذلك جزم البخاري في الجهاد"، يعني هذا الأثر.
(٢) مقدمة عن علم أصول الفقه (فضيلة الدكتور عياض بن نامي السليبي).

لم تدرج في النصوص الثابتة فقتاسوها بما ثبت، وألحقوها بما نصّ عليه بشروط في ذلك الإلحاق تصحيح تلك المساواة بين الشبهين أو المثليين، حتى يغلب على الظن أن حكم الله تعالى فيها واحد، وصار ذلك دليلاً شرعياً بإجماعهم عليه، وهو القياس^(١). ورغم هذه الإشارات والدلائل الأولية على خوض الصحابة في مثل هذه القضايا الأصولية فإن الفضل في وضع مقدمات هذا العلم وترتيب قضاياها يعود إلى الإمام الشافعي (١٥٠-٢٠٤هـ). ويجمع مؤرخو علم الأصول على أن أول محاولة لوضع مباحث الأصول كعلم إنما قام بها الشافعي، حيث وجه الدراسات الفقهية إلى ناحية علمية، ووضع نظاماً للاستنباط العلمي الذي لا يعنى بالجزئيات والفروع، بل كانت غايته ضبط الاستدلالات التفصيلية بأصول تجمعها^(٢). ولهذا وازن الإمام نفع الدين الرازي (٥٤٣هـ/١١٤٨م-٦٠٦هـ/١٢٠٩م) بين الشافعي وأرسطو، فاعتبر "نسبة الشافعي إلى علم الأصول كنسبة المعلم الأول (أرسطو) إلى علم المنطق"^(٣). وقد أورد الشافعي تلك القواعد الأصولية وتكلم عن انحصار العالم، والناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، وأفاض في الحديث عن الإجماع وإثبات القياس في رسالته المشهورة، كما أخذ ينقض بعض التعريفات من ناحية خروجها عن متابعة نظام متحد في طريقة الاستنباط، كما أخذ بالدليل الاستقرائي في مجال الأحكام، وحدد معالم المنهج في تحقيق القياس الأصولي^(٤).

وبعد الشافعي توسع الأصوليون في مباحث القياس، وابتكروا العديد من الطرق الضابطة لا تقل عن طرق الاستقراء المعاصرة. وقد أرجع الأصوليون القياس إلى نوع من الاستقراء العلمي الدقيق الذي يقوم على قانونين قام على أساسهما المنهج الاستقرائي في العصر الحديث وهما: قانون العلة، وقانون الأطراد في وقوع الحوادث، واعتبروا العلة أهم أركان القياس، وعليها مدار تعدية الحكم من الأصل إلى الفرع، لهذا أشبع الأصوليون مفهوم العلة بحثاً وتحقيقاً، وفصلوا أحكامها وشروطها، وكيفية التعرف عليها. وعالجوا ذلك فيما

(١) مقدمة ابن خلدون، ج ٣، ص: ١٠٦٢.

(٢) التمهيد لدراسة الفلسفة الإسلامية (مصطفى عبد الرازق)، ص: ٢٣٠.

(٣) المصدر نفسه، ص: ٢٣٣.

(٤) انظر الرسالة (الإمام الشافعي)، ص: ٢٢٣.

يُعرف لديهم بمسالك العلة؛ والتي من أهمها: السبر والتقسيم، والطرد والعكس والدوران، وبتقنيح المناط. وقد سبقوا في ذلك كله - كما يقول بعض مؤرخي الفكر الإسلامي - المنطقة المحدثين (١)، متأثرين في ذلك كله بمنهج القرآن الكريم ونزعه التجريبية، ووضعوا منهجاً في البحث العلمي بنى عليه علماء المسلمين التجريبيون علومهم، واستخدموه في مجال بحوثهم العلمية من فلك وطب وكيمياء ورياضيات، وهندسة وغيرها.

منهج المحدثين

إن مناهج المحدثين نتاج طبيعي وأثر من آثار المنهج القرآني، وقد جاءت وفقاً للهدى القرآن، الذي حارب الكذب والوهم، وحذر من نتائج الخطأ والنسيان، وطالب بالبرهان والدليل، وذم اتباع الظن والهوى، وحذر من قبول خبر الفاسق الذي لا يلتزم بمبدأ الصدق والتثبت. وقد وضع علماء الحديث منهجاً يقوم على قواعد النقد العلمي للأخبار والمرويات، وطبقوا ذلك المنهج في دراسة السنة وروايتها وجمعها، وذلك لأن معظم السنة جاءت من طرق آحاد من الصحابة، ولم تُنقل كما نُقل القرآن الكريم بالتواتر، وتعرض بعضها لأوهام الرواة وخطئهم ونسيانهم، ووضع الوضعين وكذبهم. وقد اجتهد المحدثون في جمع الروايات، ونقدوا أحوال الرواة ومروياتهم، واحتاطوا أشد الاحتياط في ذلك، وحكموا بضعف الحديث لأقل شبهة تتعلق بسنده أو بمتنه، وقدموا الجرح على التعديل، فجاءت الطرق التي سلكوها على أقوم ما يمكن أن تكون عليه الطرق العلمية، وكانت القواعد التي وضعوها أصح القواعد للإثبات التاريخي، ونقل الأخبار.

وقد نقد المحدثون سند الحديث، كما نقدوا متنه، ونظرة موجزة لجهدهم في المجالين يتضح من خلالها قيمة ما قاموا به. وفي تقييم الرجال وضعوا علوماً خاصة، كعلم الجرح والتعديل، الذي يهتم بأحوال الرجال من حيث الحكم عليهم بالقبول أو الرد، ووصفهم بأوصاف الثقات العدول أو المجروحين والمتروكين (٢). ووضعوا ضوابط للراوي الثقة، وبحثوا في كيفية معرفة عدالته، وضبطه، إلى غير ذلك من الضوابط المتعلقة بأمانة الأداء وقوة الذاكرة، في الحفظ والضبط. كما وضعوا علم العلل الذي يهتم بمتابعة الثقات ورواياتهم،

(١) انظر: مناهج البحث عند مفكري الإسلام (علي سامي النشار)، ص: ٩٧-١٠٣، ١١١-١١٧، ١٤٠.

(٢) الفكر المنهجي عند المحدثين (هام سعيد)، كتاب الأمة، أول محرم ١٤٠٨ هـ، ص: ٥٨.

ويتناول أنواعاً من الفقه النقدي، بعضها تاريخي، وبعضها اجتماعي، وبعضها نفسي، وبعضها عقدي، وبعضها فقه (١).

أما متن الحديث، فلم يغفله المحدثون، كما زعم بعض المستشرقين، بل اهتم نقّده الحديث بنقد نصوص الأحاديث أو متونها، وناقشوا ما روي، وبينوا ما يعارضه من النصوص، أو ما يعارضه من أحكام العقل أو ما قد يبدو فيه من مخالفة لمبادئ الإسلام ومنطقه ومناهجه.

ونظرة عجي لما قام به علماء الحديث تين أن منهجهم منهج قرآني مستمد من القرآن والسنة، وأنه منهج تاريخي نقدي، وما وضعه المحدثون من منهج وما بنوا من قواعد كان له أثر في معظم العلوم والفنون النقليّة، وتأثر بهم علماء اللغة والأدب وعلماء التاريخ وغيرهم، وتبنوا منهجهم في نقل النصوص ورواياتها وثبوت نسبتها إلى قائلها.

منهج المتكلمين

علم الكلام علم إسلامي نشأ في البيئة الإسلامية، واستمد قضاياها ومسائله، شأنه شأن العلوم الشرعية، من القرآن والسنة. أما صياغة تلك القضايا والمسائل، ووضع المناهج للتعبير عنها والبرهنة عليها، فقد مال علماء الكلام، مع استصحابهم للنصوص الشرعية، إلى استخدام العقل والتركيز على مناهجه وبراهينه.

وقد استند المتكلمون - في شرعية استخدامهم للنظر العقلي - إلى ما ورد في القرآن الكريم من أمر باستخدام العقل وإعماله في الكون والأنفس، وحث القرآن الكريم على النظر والتفكير والاعتبار. كما أن احتكاك المتكلمين بأصحاب الديانات والملل والثقافات الأخرى ومجادلتهم، وردّهم على أصحاب تلك العقائد والاتجاهات الفكرية المخالفة للإسلام، كان له أثر انعكس في صياغتهم لمناهجهم وأساليبهم، التي توجهت في الأساس إلى الدفاع عن العقائد الإيمانية وإقامة الأدلة والبراهين عليها (٢).

نتيجة لذلك نجد أن علم الكلام يقوم على دعائمي العقل والشرع، وفي هذا تلتقي كلّ المدارس الكلامية،

(١) المصدر نفسه، ص: ١٠٢-١٠٣.

(٢) انظر: مناهج البحث في العقيدة الإسلامية (أحمد محمد أحمد الجلي)، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، العدد: الثامن والعشرون، ذو القعدة ١٤٢٥هـ - ديسمبر ٢٠٠٤م.

على اختلاف فيما بينها، في تحديد العلاقة بين العقل والشرع. فالمعتزلي واصل بن عطاء يذهب إلى أن الحق يعرف من وجوه أربعة: كتاب ناطق، وخبر مجمع عليه، وحجة عقل، أو إجماع من الأمة^(١). كما يقرر القاضي عبد الجبار أن الدلائل أربعة: "حجة العقل والكتاب والسنة والإجماع"^(٢). وبالمثل يذهب الأشاعرة إلى أن جملة الطرق التي تدرك بها العلوم تنحصر في خمسة: العقل والكتاب والسنة والإجماع والقياس. أما الماتريدي (ت: ٣٣٣هـ) فيقرر في كتابه التوحيد: "أن أصل ما يعرف به الدين وجهان: أحدهما السمع والآخر العقل"^(٣). وبهذا يختلف الكلام عن الفلسفة، التي تستند إلى العقل وأحكامه من غير اعتبار للشرع أو الوحي.

ومع اصطحاب المتكلمين للسمع والعقل معاً فإن اعتدادهم بالدليل العقلي والاعتراف بصحة ما يدل عليه في المسائل الاعتقادية، أدى بهم إلى القول بوجود النظر والاستدلال العقلي كأساس للاعتقاد، وعدم الاكتفاء بالتقليد في قضايا العقيدة. كما أنهم أثاروا قضية العلاقة بين العقل والنقل بصورة حادة، واستخدموا التأويل كمنهج، واتخذوا موقفاً سلبياً تجاه أحاديث الآحاد كمصدر للعقيدة^(٤).

منهج المتصوفة

يعد التصوف في أصوله وبداياته الأولى ثمرة من ثمرات الالتزام بالعقيدة الإسلامية والمنهج القرآني، حيث سعى المتصوفة إلى بلوغ درجة الإحسان التي يرتقي فيها المسلم بعبادته إلى درجة المشاهدة أو المراقبة (أنَّ تَعَبَّدَ اللَّهُ كَأَنَّكَ تَرَاهُ...). وقد استمد التصوف أصوله الأولى من التعاليم الإسلامية، والقيم الأخلاقية التي أرساها القرآن الكريم والسنة المطهرة، وأن هذا المنهج كان في بداياته - إلى حد ما - صياغة عملية لتعاليم الإسلام في العبادة والسلوك متمثلة في تقوى الله في السر والعلن، واتباع السنة في الأقوال والأفعال، والإعراض عن الخلق والتمسك بقيم الصبر والتوكل على الله والرضى بما قسم، والرجوع إليه سبحانه في السراء

(١) انظر: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (علي سامي النشار)، ج ١، ص: ٣-٤.

(٢) شرح الأصول الخمسة (القاضي عبد الجبار)، ص: ٨٨.

(٣) كتاب التوحيد (الماتريدي)، ص: ٨-١٠.

(٤) انظر: مناهج البحث في العقيدة الإسلامية (أحمد محمد أحمد الجلي)، مصدر سابق.

والضراء. ولكن التصوف كما هو معلوم مرّ بمراحل، وتقلب في أطوار بُدّت به عن تلك الغاية والوسائل التي تحقّقها، نتيجة لتأثر بعض الصوفية ببعض التصورات الكلامية، والنظريات الفلسفية الغنوصية (١).

المنهج التجريبي

رُغم أن القرآن الكريم شجّع على طلب العلم، وحثّ على استكشاف الكون، وشهد العالم الإسلامي خلال القرون الأولى للإسلام حركة علمية نشطة ازدهرت على إثرها علوم اللغة والأدب، وعلوم التفسير والحديث، فإن نشأة العلوم البحتة أو التطبيقية؛ كالطب والفلك والرياضيات والكيمياء والهندسة، لم تزدهر إلا مع حركة الترجمة ونقل علوم الأمم الأخرى أو علوم الأوائل، كما أطلق عليها المسلمون آنذاك، إلى اللغة العربية. فبتشجيع من القرآن الكريم، اطلع العلماء المسلمون على تراث الأمم العلمي، واستفادوا من مجهودات العلماء السابقين، وحفظوا ذلك التراث العلمي الذي سبقهم لا سيما التراث اليوناني من الضياع. ولكن لم يقتصر دور العلماء المسلمين على النقل والحفظ، بل إنهم طبعوا ما أخذوه بطابعهم الخاص؛ ففقدوا وأضافوا واكتشفوا وأبدعوا في مختلف مجالات العلم والمعرفة، وحققوا إنجازات هامة في ميادين العلم التجريبي كالطب والكيمياء والفيزياء والفلك والرياضيات والجغرافيا وغيرها من العلوم (٢).

وقد كان من نتائج هذه الحركة أن شهدت الصناعات وفنون الزراعة والنظم الزراعية وأساليب الري والتسميد وتربية الحيوانات، تقدماً باهراً كان مثار إعجاب من أروخوا للعلم ودهشتم (٣).

ورغم تلك المبتكرات والمخترعات والكشوف في مجالات العلم المختلفة، فقد كان الإسهام الأكبر للمسلمين في مناهج البحث العلمي التجريبي وطرقه، حتى أصبح أساساً للحضارة الأوروبية الحديثة، وقد كان ابتكاراً إسلامياً خالصاً، لأن الثقافات القديمة وخاصة اليونانية، كانت تجهل الطريقة التجريبية وتحتقرها ولا تعنى إلا بالدراسات النظرية المجردة. فاستطاع المسلمون أن ينشئوا منهجاً في البحث العلمي التجريبي يقوم على

(١) انظر: طائفة الختمية أوصافها التاريخية وأهم تعاليمها (أحمد محمد أحمد جلي)، ص: ٧-٨، والفلسفة الصوفية في الإسلام (عبد القادر محمود)، دار الفكر العربي، ١٩٦٦م.

(٢) انظر: في تراثنا العربي الإسلامي (توفيق الطويل)، ص: ٨٨.

(٣) معالم تاريخ الإنسانية، ج ٣، ص: ٦٦٨.

الملاحظة، وتمييز الظواهر بعضها عن بعض، والاستقراء، وصياغة القوانين، والموضوعية، وتحري الحقيقة^(١). ويعود هذا المنهج في أصوله إلى ما سبق أن وضعه علماء الأصول والحديث من أسس وقواعد، استمدوها مباشرة أو بطريقة غير مباشرة من القرآن والسنة، فلدى أولئك العلماء تكون المنهج العلمي قبل أن ينتقل إلى العلماء التجريبيين، الذين نقلوه من مرحلة النظر إلى التطبيق. والدليل على ذلك ما نجده عند ابن الهيثم في رسالته في الضوء، إذ يقرن لفظ الاعتبار «التجربة» بلفظ السبر، والمراد به الإبطال، وهو اللفظ الوارد عند علماء الأصول والمتكلمين^(٢).

ويقوم المنهج التجريبي لدى علماء المسلمين على الأسس التالية:

١ - الشك المنهجي: وهو الذي يقود إلى تحييص الحقائق، ونقد المصادر، ويمهد للتثبت من صحة الأفكار. وقد نادى بذلك كل من التظام، والغزالي، والحسن بن الهيثم، ووفقاً لهذا قيم ابن الهيثم فكر بطليموس وآراءه، وأشاد بجهوده في الرياضيات والعلوم، وذكر أنه وجد في كتبه علوماً كثيرة وفوائد عظيمة، ولكن لم يمنعه هذا من الإشارة إلى مواضع الضعف في أفكاره وعباراته، ويقول عن ذلك: "لما نظرنا في كتب الرجل المشهور بالفضيلة، وجدنا فيها علوماً كثيرة، ولما هضمناها وميزناها وجدنا فيها مواضع شبهة، وألفاظاً بشعة، ومعاني متناقضة، ورأينا أن في الإمساك عنها هضماً للحق وتعدياً عليه، وظلماً لمن ينظر بعدنا في كتبه في سترنا ذلك عنه، ووجدنا أولى الأمور ذكر هذه المواضع، وإظهارها لمن يجتهد من بعد ذلك في سدّ خللها، وتصحيح معانيها، بكل وجه يمكن أن يؤدي إلى حقائقها"^(٣).

وهكذا زاول علماء المسلمين من ناحية عملية هذا الشك في دراساتهم العلمية، فلم يسلموا بما قاله مشاهير المفكرين، بل أخذوا يعيدون النظر فيما يلقونه منهم، ويحصوا أفكارهم لمعرفة صوابها من خطئها، وعملوا على إكمال نقصها أو إبدالها بغيرها من الأفكار التي أثبتت التجربة أو شهد العقل بصوابها.

(١) خصائص التفكير العلمي بين تراث العرب وتراث الغربيين، عالم الفكر، مجلد ٣ عدد: ٤، الكويت، ١٩٧٧م.

(٢) منهج البحث العلمي عند العرب (محمد جلال موسى)، ص: ٢٧.

(٣) مجموعة رسائل الحسن بن الهيثم، طبع حيدر آباد الدكن، ١٣٥٧هـ، رسالة في ضوء القمر، ص: ٣، نقلاً عن تطبيق المنهج، ص: ١١٣.

٢- الملاحظة: وهي الأساس الثاني من أسس المنهج العلمي، فقد دعا علماء المسلمين إلى استخدامهم، ومارسوها فعلاً في بحوثهم، واستعانوا بها في تخيص أقوال من تقدموهم، والكشف عن أخطائهم. جابر بن حيان (١٩٨هـ-٨١٣م)، يقول في المقالة الأولى من كتاب «الخواص الكبير»: "ويجب أن تعلم أنا نذكر في هذه الكتب، خواص ما رأيناه فقط دون ما سمعناه أو قيل لنا وقرأناه، بعد أن امتحناه وجربناه. فما صحَّ عندنا بالملاحظة الحسية أوردناه، وما بطل رفضناه" (١).

وتبدو مثل هذه الشواهد كثيرة، لا سيما في مجال الطب والفلك والجغرافيا. فرغم إعجاب العلماء المسلمين بجالينوس وطبّه، فقد كشفوا في ضوء خبرتهم الحسية وملاحظاتهم، الكثير من أخطائه. ويقول أحد هؤلاء الأطباء: "فشاهدنا من شكل العظام ومفاصلها وكيفية اتصالها وتماسها وأوضاعها ما أخذنا علماً لا نستفيده من الكتب، إما أنها سكنت عنها، أو لا يفي لفظها بالدلالة عليها، أو يكون ما شاهدناه مخالفاً لما قيل فيها، والحس أقوى دليلاً من السمع، فإن جالينوس وإن كان في الدرجة العليا من التحري والتحفّظ فيما يباشره فإن الحق أصدق منه" (٢).

٣- التجربة: أما التجربة التي هي مدار البحث العلمي التطبيقي، فقد فطن المسلمون إليها، واهتموا بها. وأسمّاها جابر بن حيان بالتدريب، وقال: "فن كان درباً (مجرّباً) كان عالماً حقاً، ومن لم يكن درباً لم يكن عالماً، وحسبك بالدربة (إجراء التجارب) في جميع الصنائع، أن الصانع الدرب يخلق وغير الدرب يعطل" (٣). ويقول أيضاً: "إن واجب المشتغل في الكيمياء هو العمل وإجراء التجربة، وإن المعرفة لا تحصل إلا بها". وفي ظل تجاربه وفق جابر إلى تحضير كثير من العناصر الكيميائية، وكان ابن الهيثم يزاول التجربة العلمية تكلمة للملاحظة الحسية، ويسمّيها «بالاعتبار». وقد قام بالكثير من التجارب التي مكنته من التوصل إلى كشوفه العلمية.

٤- الموضوعية والنزاهة العلمية: قد تميّز علماء المسلمين بالنزاهة في الحكم والموضوعية في البحث. وتشير كثير

(١) في تراثا العربي الإسلامي (توفيق الطويل)، ص: ١٨.

(٢) في تراثا العربي الإسلامي (توفيق الطويل)، ص: ٢٠.

(٣) مناهج البحث (النشار)، ص: ٢٦٢.

ومفاهيم عقلية لا تمت بصلة إلى النظام الواقعي للكون، ولا تتطابق مع القوانين الطبيعية المستقلة عن النظريات الفلسفية المجردة (١).

خاتمة

من خلال هذه الدراسة يمكن أن نخلص إلى ما يلي:

١ - أن المعرفة والعلم في المنظور القرآني ليس تراكمًا للمعارف والمعلومات، بل هي معرفة تربط الإنسان بالله تعالى، وتمثل قيمة العلم في أنه يقود إلى الإيمان، والإيمان في حقيقته مرتبط ارتباطاً لازماً بالعمل ويقود إليه.

٢ - وأن غاية المعرفة والعلم هي هداية الإنسان إلى الطريق القويم والصراط المستقيم الذي به يتحقق سعادته في الدنيا والآخرة، وبه يعرف الإنسان نفسه ويعرف ربه ويعرف ما له وما عليه من حقوق وواجبات، بموجب خلافته في الأرض، والطلب منه إعمارها بالحق، وإقامة الحق والعدل بين الناس (٢).

٣ - نتيجة لهذه الرؤية للمعرفة والعلم اهتم علماء المسلمين بالأخلاق التي ينبغي أن يتحلى بها العلماء وتضع ضوابط لأبحاثهم العلمية وتعاملهم مع أشياء هذا العالم والغاية من بحوثهم. فأبو بكر الرازي يتحدث في بعض كتبه الطبية والفلسفية عن الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها الطبيب ودارس الطب: "فيجب ألا يتخذ الطب مجرد وسيلة لجمع المال، بل أن يتذكر أن أقرب الناس إلى الله هو أعلمهم وأعدلهم وأرأفهم بالناس".

٤ - تمثل المعرفة والعلم وفقاً للرؤية القرآنية وحدة متكاملة، فلا نجد ذلك التوتر الحاد الذي نجده اليوم - بتأثير الثقافة الغربية - بين علوم الدين وعلوم الدنيا، بل نجد تكاملاً للمعرفة والعلوم، حيث لم يهمل جانب من جوانب المعرفة والعلم، أو الأدب والفن، والحرف والمهن. بل نجد اهتماماً بالعلوم الدينية المؤسسة على النقل والتواتر (علوم القرآن الكريم والحديث)، والعلوم الإنسانية كالفلسفة وعلوم الاجتماع

(١) خصائص التفكير العلمي بين تراث العرب وتراث الغربيين، عالم الفكر، مجلد ٣، عدد ٤، الكويت ١٩٧٧م.

(٢) انظر: فلسفة العلم من منظور إسلامي (زكريا بشير إمام)، ص: ٥٢.

والتاريخ والأدب واللغات وعلم النفس والأخلاق والسياسة، وكل فروع العلوم الطبيعية وعلوم ما بعد الطبيعة، والهندسة والفلك والرياضيات. فكثير من علماء المسلمين جمعوا بين دراسة العلوم الدينية والعلوم الكونية أو المادية. فالكندي مثلاً يكتب في العلوم الرياضية والفلكية والطبيعية، ويشرح القرآن والآيات الكونية مدعماً بها آراءه وما توصل إليه من حقائق. ونجد للتلميذه أبي يزيد البلخي مؤلفات لعبت دوراً رئيساً في الجغرافية وكونت مدرسة جغرافية، كما نجد له مؤلفات في علوم القرآن وتفسيره. ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك ابن رشد الذي ألف في الفلسفة والطب وكتب في الفقه الإسلامي وجمع بين الحكمة (الفلسفة) والشريعة. وابن النفيس مؤلفات في الطب والسيرة وعلوم الحديث. وهكذا نجد أنه في إطار العلم الإسلامي تمثلت وحدة المعرفة الإنسانية.

٥ - ارتبطت المعرفة والعلم في الإسلام بالعمل، وقد ابتعد علماء المسلمين عن التفكير التجريدي والتأملات الفلسفية التي كانت سمة الفكر اليوناني ولم يدخلوا في مجادلات ومناظرات ومباحثات لفظية، بل عبروا عن كراهيتهم لكل علم لا يترتب عليه عمل نافع، قال مالك: "لا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل". لهذا كان الاتجاه العام لعلماء المسلمين التجريبيين توجيه معارفهم لتشييد ما ينفع وأشؤوا من ثم المنشآت العديدة كالمستشفيات الثابتة والميدانية، والصيدليات والطرق والجسور ووسائل البريد والمراصد الفلكية وصناعة السفن إضافة إلى وسائل الري وخزانات المياه وصناعة الورق والنسيج والمعادن المختلفة.

٦ - إن أي مشروع نهضة علمية للأمة، لا بد أن يستصحب هذه الرؤية القرآنية للمعرفة، التي تتسع لتوجهات الإنسان على اختلافها، والتي يلتقي فيها الوحي والعقل، والتجربة والإلهام، والنظر بالعمل، والتي تدفع الإنسان إلى السعي في الدنيا سيراً إلى الآخرة. ومن خلال تبني هذه الرؤية يمكن للمسلم المعاصر أن يسهم، إن لم يكن في النهضة العلمية المعاصرة، فعلى الأقل في توجيه مسيرتها من أجل تجنب البشرية الهلاك والدمار اللذين توجي بهما مسيرة العلم بفلسفته المعاصرة.

المصادر والمراجع

١. إشكاليات الفكر الإسلامي المعاصر (محمد عمارة وآخرون)، مركز دراسات العالم الإسلامي - مالطا، ط ١، خريف ١٩٩١م.
٢. اقرأ وربك الأكرم (جودت سعيد)، بيروت، المكتب الإسلامي، ط أولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
٣. - تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه (عبد الحليم منتصر)، الإسكندرية، دار المعارف، ط خامسة، ١٩٨٠م.
٤. تجديد الفكر الإسلامي (محسن عبد الحميد)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ١، ١٤١٦هـ - ١٩٩١م.
٥. التطور والتجديد في دراسة العقيدة الإسلامية (أحمد محمد أحمد الجلي)، مؤتمر التجديد في الفكر الإسلامي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة اليرموك، ٣-٥ تموز ٢٠٠١م.
٦. التعريفات (الجرجاني، علي بن محمد)، تحقيق: إبراهيم الأبياري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ٤، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
٧. التفكير فريضة إسلامية (عباس العقاد)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ثانية، ١٩٦٩م.
٨. الإتقان في علوم القرآن (السيوطي)، بيروت، المكتبة الثقافية، ١٩٧٣م.
٩. تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية (مصطفى عبد الرازق)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط ٢، ١٩٥٩م.
١٠. نهافت العلمانية (عماد الدين خليل)، بيروت، ١٣٩٥هـ.
١١. جامع الأصول في أحاديث الرسول (لأبي السعادات بن الأثير)، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة الحلواني، ١٣٨٩هـ.
١٢. حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة (جميل عبد الله محمد المصري)، ط ثانية، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م، مطابع الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.
١٣. حول النظام المعرفي في القرآن الكريم (محمود عايد الرشدان)، إسلامية المعرفة، العدد العاشر،

١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

١٤. دراسات في العقيدة الإسلامية (أحمد محمد أحمد الحلبي)، دار الكتاب الجامعي، العين، ط أولى،

٢٠١٠م.

١٥. رشيد رضا ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (محمد عبد الله السلهمان)، مكتبة المعلا، الكويت،

١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.

١٦. سنن الترمذي (أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة)، تحقيق وتعليق: إبراهيم عطوة عوض، مصر، مكتبة

مصطفى الحلبي.

١٧. شرح الأصول الخمسة (القاضي عبد الجبار بن أحمد المعتزلي)، تحقيق وتقديم: عبد الكريم زيدان، مكتبة

وهبة، ط أولى، ١٣٨٩هـ.

١٨. شمس العرب تسطع على الغرب (زيغرد هونكه)، دار الآفاق الجديدة، ط ثالثة، ١٩٧٩م.

١٩. صحيح مسلم (مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: محمد

فؤاد عبد الباقي.

٢٠. طائفة انختمية: أصولها التاريخية وأهم تعاليمها (أحمد محمد أحمد الحلبي)، دار خضر للطباعة والنشر

والتوزيع، بيروت، ط أولى، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

٢١. فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال (ابن رشد)، ضمن فلسفة ابن رشد، منشورات دار

الآفاق الجديدة، بيروت، ط ثانية، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

٢٢. الفكر الإسلامي (إعداد نخبة من أساتذة الفكر الإسلامي بجامعة الإمارات)، مراجعة وتحرير: أحمد محمد

أحمد الحلبي، مطبوعات جامعة الإمارات العربية المتحدة، ط أولى، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٢٣. الفكر الإسلامي الحديث وإشكالية المنظومة المصطلحية (محمد زرمان)، مؤتمر التجديد في الفكر الاسلامي،

(انظر مصدر رقم ٤).

٢٤. الفكر المنهجي عند المحدثين (همام سعيد)، كتاب الأمة، أول محرم ١٤٠٨هـ، الدوحة.

٢٥. فلسفة العلم من منظور إسلامي (زكريا بشير إمام)، الخرطوم، دار السداد، ط أولى، ٢٠٠٢م.

٢٦. في تراثنا العربي الإسلامي (توفيق الطويل)، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، جمادى الآخرة ١٤٠٥هـ - مارس ١٩٨٥م.
٢٧. القاموس المحيط (الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب)، إعداد وتقديم: محمد عبد الرحمن المرعشلي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ثانية، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
٢٨. القرآن والنظر العقلي (فاطمة إسماعيل محمد إسماعيل)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط أولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
٢٩. كتاب التعريفات (علي بن محمد بن علي الجرجاني)، حققه وقدم له: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، ط رابعة، ١٤١٨هـ.
٣٠. كتاب التوحيد (أبو منصور الماتريدي)، دار المشرق، بيروت، ط ثانية، ١٩٨٦م.
٣١. لسان العرب (ابن منظور)، دار صادر، بيروت، ط أولى، ٢٠٠٠م.
٣٢. ما يعد به الإسلام (روجيه جارودي)، ترجمة: قصي أتابي وآخرين، دار الوثبة، ط ثانية، ١٩٨٣م.
٣٣. معالم تاريخ الإنسانية (هـ.ج. ويلز)، ترجمة: توفيق خليل، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧م.
٣٤. المعجزة الكبرى «القرآن» (محمد أبو زهرة)، دار الفكر العربي، القاهرة.
٣٥. المعجم الفلسفي (مجمع اللغة العربية بالقاهرة)، القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
٣٦. معجم مقاييس اللغة (أبو الحسين أحمد بن فارس)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧٠م.
٣٧. المفردات في غريب القرآن (الراغب الأصفهاني)، تحقيق وضبط: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، د.ت.
٣٨. مقدمة ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون)، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، ط ثالثة، د.ت.

٣٩. مقدمة في التفسير (أبو القاسم الحسن بن محمد بن الفضل الأصفهاني)، مطبعة الجمالية، مصر، ط أولى، ١٣٩٩هـ.
٤٠. مناهج البحث عند مفكري الإسلام (علي سامي النشار)، ط رابعة، ١٩٧٨م، دار المعارف، القاهرة.
٤١. مناهج الجدل في القرآن الكريم (زاهر عواض الألمعي)، ط ثالثة، ١٤٠٤هـ مطابع الفرزدق، الرياض.
٤٢. منهج البحث العلمي عند العرب في مجال العلوم الطبيعية والكونية (محمد جلال موسى)، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢م.
٤٣. ندوة الدراسة المصطلحية والعلوم الإسلامية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، ٩-١٠ جمادى الثانية ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.
٤٤. نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (علي سامي النشار)، دار المعارف، ط ٢، ١٩٧٥م.
٤٥. نظرية المعرفة في القرآن الكريم وتضمنياتها التربوية (أحمد محمد حسين الدغشي)، ط أولى، ذو القعدة ١٤٢٢هـ-يناير ٢٠٠٢م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار الفكر، دمشق، بيروت.

Summary

Title: The concept of knowledge in the Qur'an and its influence of the Methodologies of Muslims Scholars.

This article deals with the epistemology of the Qur'an, and its impact on the methodologies of Muslims scholars. The Qur'an is not a book of sciences, however it refers to many facts about the Universe and its components: The earth, the sky, the sun and the moon, the animals and Plants, rivers and seas, human beings and other living creatures. The Qur'an refers to this natural phenomenon, and continuously encouraged Muslims to look through the universe and travel through the earth to attain information on the natural phenomenon.

The articles tries to explore the sources of knowledge in the Qur'an, and pointed out to the Revelation (the Qur'an and Sunnah), and The Universe as the main sources of Knowledge. Then it tried to explain the tools for attaining knowledge. It refers to senses, Reason, and Intuitions as ways of attaining knowledge from the Universe and the Revelation.

Then the article moved on to explain the impact of the Qur'an on the methodologies of the Muslims scholars, and showed how they benefited from the Qur'an to formulate their methodologies. Upon the Qur'an, the Traditionists (muhadithin) formulate their methodology of scrutinizing the Prophet's Traditions, and the scholars of the principles of Jurisprudence ('ulamausul al fiqh)

used the Qur'an methodology to formulate their methods of investigation and development of legal provisions. And upon the scientific facts referred to in the Quran, the Muslims scientists coined their experimental methodology of the discovery and verification of scientific facts. The Muslim theologians based their methodology on the verses of the Koran. The Sufis found bases for their spiritual experiences in the verses of the Holy Book.

The article showed that most of the Islamic Sciences are based on the Koran, and that the Koran was the prime reference for Muslim scholars in various fields of experimental sciences and human knowledge.

The article concluded by referring to the integration of knowledge in the perception of Islam, and the consistency between all types of knowledge, in the Qur'an: The metaphysical and scientific knowledge, revelation and the universe.